من آثار السيدة زبيدة

للأستاذ المغربي

قال محمد بن علي العبدي للخليفة القاهر وقد سأله يوما أن يحدثه عن السيدة زبيدة : كان من فعل زبيدة وحسن سيرتها في الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها

فأما الجد والآثار الجميلة التي لها في المملكة فهي حفرها العين المنسوبة إليها في الحجاز . وتمهيدها الطريق لسائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر من مسافة اثني عشر ميلا ، حتى بلغت بها مكة . وأنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار . ولها كثير من أمثال هذا العمل العمراني

هذا في الجد . وأما في الأمور التي تتباهى بها الملوك في أعمالهم ، وينعمون بها في أيامهم ، وتتزين بها سيرهم وأخبارهم . فهو أنها :

أول من اتخذ الآلة (أي أدوات البيت وأمتعته) من الذهب والفضة المكللة بالجوهر . وصنع لها الصناع الرفيع من الوشي حتى كلف الثوب نحو خمسين ألف دينار

وهي أول من اتخذ (الشاكرية [1]) من الخدم والجواري. يركبون الدواب ويغدون ويروحون برسائلها وحوائجها

وأول من اتخذ القباب على الهوادج من فضة وآبنوس وهندل ، لها كلاليب من الذهب والفضة ؛ وهي ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق . واتخذت النعال المرصعة بالجوهر . واصطنعت الشمع من العنبر . وقلدها أغنياء الناس في ذلك جميعه

ولما أفضت الخلافة إلى ابنها (الأمين) قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم كثيرا وغيره من خدمه ، فلما رأت أمه شغفه بهؤلاء الغلمان المماليك اتخذت الجواري الحسان المقدودات [2] وعممت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ [3] والأقفية (لعله يعني الشعور تجمع على القفا بشكل خاص موثق) وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق (وهي من ألبسة شباب الجند وغلمان العسكر) وأرسلتهن وهن بهذا الزي إلى ابنها (الأمين) فراقه شكلهن . وأبرزهن في مجلسه أمام الخاصة والعامة . وشاع أمر هذا الزي في الناس فجعلوا يتخذون الجواري المطومات (أي المفصوصات الشعور من طم الشعر إذا جزه أو قصه) ويلبسونهن ملابس الغلمان : من أقبية ومناطق وسموهن (الغلاميات)

وقد أكثر شعراء ذلك الزمن من وصف هؤلاء الغلاميات وفي طليعتهم أبو نواس

ويظهر أن اتخاذ هؤلاء الجواري الزي المذكور لم يكن بواسطة اللبوس من الثياب وطم الشعر فقط بل يتعدى إلى تصفيف الشعر كما يفعل الغلمان وإلى تخطيط شوارب من المسك والغالية والعبير على الشفة العليا تقليداً للشوارب الطبيعية . وقد أشار إلى ذلك أبو نواس بقوله

حور طلعن مؤنثا ت الدل في زي الذكور
أصداغهن معقربا ت والشوارب من عبير

والعبير أخلاط من طيب تداف بالزعفران ، فالجارية كانت تلبس لبوس الغلام وتخط على مواضع الشوارب خطا من العبير وفي لونه شقرة فيبدو كشارب الغلام أول ما يبدو وهو بعد أشقر أو أصفر ، أما مواضع الصدغ من الجارية فلا يكون عليه شعر السالف مسترسلا أو سبلا كسوالف الجواري وإنما هن يقصصن ذلك الشعر ويلوينه على شكل العقرب ، أو لعلهن يكوين شعر الصدغ كما تكوى الشعور اليوم بحدائد خاصة . فالغلمان

(١) الشاكرية جمع (شاكري) معرب (چاكرد) شاعت منذ العهد العباسي بمعنى الخدم ومنه اسم (الشاكرية) لضرب من الخناجر كانوا يتقلدونه

(٢) المقدود اسم مفعول من قد ـ قد السيف أي خلق حسن التقاطيع والمعنى أن قدود أولئك الغلمان كانت متناسبة في الرشاقة تناسب نصال السيوف

(٣) المراد بالأصداغ شعرها . وجعلها لهن الأصداغ كناية عن عقربتها . أي لي شعرها على شكل العقرب كما في قول أبي نواس (أصداغهن معقربات والشوارب من عبير)